الرشيد

لم يكن الخليفة «هارون الرشيد» اول خليفة غضب من جرم وزيره فقتله ، وزج بأهله وقرابته في السجن . كما حدث من قتله جعفر ابن يحيى البرمكي وايقاعه بأسرته .

ولكن نزول ذلك فجأة من غير اعلان السبب ، او ذكر شيء عن السر في هذه النكبة ، مع ماللبرامكة في نفوس الناس من شأن كبير ، نتيجة للدعاية الواسعة التي احاطوا انفسهم بها . وما عرف من صلتهم بالرشيد وحبه لهم وثقته فيهم ، دفع الفضوليين الى انتحال تفسيرات لا حقيقة لها ، والحاقدين الى اختلاق الاشاعات والتهم التي لا اصل لها .

وبعض المؤرخين اعتمد من تلك الاشاعات والتفسيرات ما يتفق مع اهوائهم وشوهوا بها حقائق التاريخ ! وجاء بعض كتاب التاريخ المتأخرين فنسجوا على منوالهم وزعموا ان نكبة البرامكة حدثت بلا جريرة منهم ، وأنها غدر وعدم وفاء من الرشيد ، ونزوة طارئة من نزوات غضبه المعتادة، وتناسوا أن المصادر التاريخية الدقيقة ترفض هذه الاشاعات ، وتشير الى الأسباب الصحيحة ، كما تثبت تلك المصادر ما كان عليه الرشيد من صلاح وتقوى ، وانه كان لا يضيع عنده احسان محسن ولا يؤخر ذلك في اول ما يجب ثوابه ، وانه كان من احكم الناس واقدرهم على كظم غيظه .

ومن الاشاعات التي وضعها العامة سببا لنكبة البرامكة ، ويرفضها المنطق والسند الصحيح. قصة « العباسة بنت المهدي » أخت هارون الرشيد ، وقد ذكرها ابن جرير الطبري في تاريخه ج١٠ ص٨٤ وملخصها : أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر بن يحيى ، والعباسة اخته اذا جلس للشراب .. فأراد ان يحضرهما معا في مجلسه ذاك ، ولكن الشرع الاسلامي يحول دون جمعهما ، فجعفر غريب عنها ومحرم عليها . فاحتال الرشيد للأمر ، بأن يزوجه منها لتحل له

ونكبة البرامكة

للشيخ محمد الاباصيري خليفة

رؤيتها ومجالستها ، فقال لجعفر : أزوجكما على الا يكون منك شيء مما يكون للرجل الى زوجته . فقبل جعفر ، وعقد قرانهما ... ولكن جعفر اتصل بها — فيما بعد — كزوجة له ، فحملت منه طفلا ، خافت عليه من أخيها ، فأبعدته الى مكة . وعلم الرشيد بالأمر ، فغضب على جعفر وانقض على البرامكة لهذا السبب .

وبالرجوع الى المصادر التاريخية والتحقيقات التي قام بها بعض المؤرخين حول هذه القصة، وخاصة ذلك التحقيق الدقيق الرائع الذي سطره الدكتور عبد الجبار الجومرد في كتابه هارون الرشيد ج٢ ص ٤٦٠ — ٤٦٨ يتضح أن القصة موضوعة لتشويه بيت الرشيد ولا ظل لها من الحقيقة وذلك لما يأتي :

أولا — القصة ذكرها ابن جرير الطبري في تاريخه (ج ١٠ ص ٨٤) بغير سند . وذلك على غير عادته في الروايات التاريخية الأخرى مما يدل على أنه تلقفها من أفواه العامة في عصره .

ثانيا — يقول الجهشياري ص٢٤٥ (وهو أحد معاصري الطبري الذي روى القصة ، وكلاهما قريب من عهد الرشيد): قال عبد الله بن يحيى ابن خاقان : سألت مسرورا الكبير، في أيام المتوكل — وكان قد عمر اليها ومات فيها — عن سبب قتل الرشيد لجعفر وايقاعه بالبرامكة ، فقال : كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة ؟؟! .. فقلت له : ما أردت غيره ، فقال : لا والله ما لشيء من هذا أصل ، ولكنه من ملل موالينا وحسدهم . وقد علق الدكتور عبد الجبار الجومرد على هذه الرواية بقوله : « فمتى علمنا بأن « مسرورا الكبير » هذا ، هو الذي نفذ القتل في جعفر ، بأمر من الرشيد، وان السائل له «ابن خاقان» هو الذي نقل هذه الشهادة الى الجهشياري بنفسه ، قدرنا اذن قيمة هذه الشهادة من الناحية التاريخية، وأيقنا بأن قصة العباسة قد صنعها العامة من أهل بغداد حين خفيت

عليهم اسباب النكبة .. ومتى ذكرنا بأن للبرامكة في بغداد — يومئذ — دعاة وأبواقا لا تكف عن التمجيد بهم ، والطعن بخصومهم أمام العامة في أيام حكمهم ، عرفنا بأن عددا كبيرا منهم حزن عليهم يوم نكبتهم ، وحنق على الرشيد للايقاع بهم ، فلا يبعد أن يختلق احدهم أو بعضهم هذه الحكاية المشينة ، فتسري بين العامة ، وسواد العامة يألف الحكايات الطاعنة بالشرف والعرض اذا كانت موجهة ضد كل ذي جاه وسلطان » .

ثالثا — قال الدكتور عبد الجبار في كتابه «هارون الرشيد»: «ونقل بعض المؤرخين هذه الرواية ، ووسعها آخرون على شكل قصة لغايات في نفوسهم ، ثم تناقلتها أيدي المستشرقين وبعض الكتاب في أوروبا في العصرين الأخيرين ، وأضافوا اليها من أخيلتهم ، والفوا فيها روايات تناسب أذواقهم الاجتماعية في بلادهم ، وجعلوها صلة غرامية شعرية ، كما تعودوا أن يكتبوا عن امرائهم في القرون الوسطى .. والأغرب من هذا ، أن بعض الكتاب او الشعراء العرب ، اقتبسوا من الغربيين آراءهم هذه ، ونقلوا القصة منهم ثانية الى العربية ، في عصرنا هذا ، والفوا فيها المسرحيات نثرا وشعرا ، كأن اخبارها صحيحة ومتفق عليها ، وكأن ما جاء فيها لا يسيء الى الحقيقة والتاريخ ، ولا يسيء في شيء الى هذه المرأة المحصنة البريئة اخت الرشيد العاهل العربي الكبير ! » .

هذه حقائق تاريخية تدل بوضوح على أن القصة موضوعة ، ولاصلة لها بالواقع .

وهناك أسباب أخرى تتفق والمنطق السليم والعقل الرشيد تحدث عنها الدكتور عبد الجبار الجومرد في كتابه هارون الرشيد فقال :

ان الرشيد لم يكن مبتذلا في مجالسه ، ماجنا تافه الراي بحيث لا يصبر عن جمع اخته مع رجل محرم عليها ، وكان شديد التمسك بقوميته العربية ، فكيف يزوج أخته ، وهي من هي بين قومها ، برجل فارسي ، في حين كان الوسط من العرب يأنفون من فعل ذلك ؟؟ ولو اراد هو مخالفة هذه التقاليد ، فكيف يزوجها على هذا الشرط السخيف ؟؟ وكيف يتبع هذه الأساليب الخفية المريبة في ترويج اخته دون أن يكون لهذا الزواج مراسيم تليق بمكانة العروسين ؟؟ ودون أن يعلم احد بذلك ؟؟ .. وأخيرا فاذا كان قد زوجها من جعفر ، وأصبحت زوجة شرعية له ، فكيف يسمح له ضميره ودينه وتقواه أن يقتل طفلا بريئا هو ثمرة مشروعة لزواج شرعي صنعه بيده ، ثم يقتل أباه وهو زوج أخته ووزيره الحبيب اليه ؟؟ ثم يقتل أخته الأثيرة عنده ؟؟

— ولم نعثر على خبر واحد صحيح لمجلس أنس حضرته العباسة مع أخيها الرشيد .

لقد كان الرشيد من أشد الناس غيرة على نساء أسرته ، وكان يغضب اذا سمع جارية من جواري أخته « عليه » تغني بشيء من شعرها أمام احد من الناس . وكان الأصمعي يضع كمه على رأس « مواسة » بنت الرشيد وهي طفلة

صغيرة ، ويقبل كمه خوفا من غيرة أبيها وبطشه ، فكيف يصح القول بأن الرشيد كان لا يصبر عن مجالسة أخته العباسة بحضور رجل غريب عنها . وان أصبح زوجها ؟؟

وأكثر من ذلك . فان العباسة كانت متزوجة محصنة ، ولكنها منكوبة منكودة الحظ في زواجها ثم تزوجت ثانية بوالي مصر « ابراهيم ابن صالح الهاشمي » فمات هو أيضا وقيل تزوجت بأمير ثالث ونظموا في ذلك الأشعار . فكيف تستطيع اذن هذه البائسة الكئيبة، التي ما خرجت من ترمل وحزن الا لتدخل في ترمل وحزن آخر ، أن تحضر مجالس الأنس والسمر مع الرشيد وجعفر ، فتمرح وتنطلق بينهما ، وتتظرف وتتندر ؟؟

وكان جعفر بن يحيى وهو في شبابه وسلطانه ، وسعة ثرائه وجاهه ، يستطيع أن يتزوج في كل وقت ممن يريد من حسان النساء المهائر الأكفاء له من غير الأسر العربية المتزمتة بتقاليدها ، وأن يقتني ما يشاء من الجواري البارعات في الحسن بأي ثمن كان . هذا مع العلم بأنه تزوج مبكرا بعدة نساء ، ورزق منهن أولادا عرفوا في التاريخ ، وامتلك عددا كبيرا من أرق الجواري وأثقفهن .. ومن كانت هذه حاله لا يعقل أن يزج بنفسه في طرق ملتوية مشروعة أو غير مشروعة تزري بكرامته ، وتعرضه الى سخط الرشيد ، وعدد غفير من أمراء بني العباس ، وهو يعلم غيرتهم على نسائهم .

ومما تقدم يتضح أن قصة العباسة لا أصل لها وأنها من وضع غوغاء الناس ، وربما كان مصدرها أحد أبواق البرامكة من الشعوبيين أراد أن يسيء بها الى كرامة الرشيد ، وقد تكون تولدت من نكتة فاه بها أحد المجان حين سمع بقتل جعفر ولم يعرف سبب قتله فقال : (تزوج العباسة فمات) استنادا على ماكان شائعا من شؤمها ، فذهبت النكتة مثلا ، ثم صنعت قصة ، فدخلت التاريخ .

أما السبب الحقيقي لنكبة البرامكة فهو سبب سياسي يرجع الى أنهم استغلوا نفوذهم واستأثروا بالسلطة في أيديهم، وقد ذكر الجهشياري أربع عشرة قضية عددها الرشيد ليحي ابن خالد في حينه ، وكل واحدة منها تكفي عذرا له في التخلص منهم ، وازاحتهم من طريقه .

وقد قال ابن خلدون في مقدمته ج ١ ص ١٥ « وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه . فغلبوه على أمره ، وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه » .

ويقول الدكتور عبدالجبار الجومرد في كتابه هارون الرشيد ج٢ ص٤٦٩ في بيان السبب الرئيسي للنكبة ما ملخصه : أن الرشيد لم يكن غافلا عن أعمال البرامكة التي توجب محاسبتهم ، ولكنه أغمض عينيه فترة غير قصيرة عنهم ، وفاء لخدماتهم ، وحرصا على صفاء الجو بينه وبينهم، وأملا في أن يعودوا الى رشدهم ، ولكن أمر البرامكة تفاقم ، وسلطانهم ظهر على سلطانه ، والنعرة الفارسية والشعوبية تكالبت على

قوميته ، واستبد « يحيى بن خالد » بكل أمور الدولة ، وتدخل « جعفر ابن يحيى » في خاصة شئونه ، حتى أوقع بين ولي عهده الأمين والمأمون، وغرس الحقد بينهما بما يهدد مستقبل الخلافة اذا تنازعا عليها ، ومنع المال عن الرشيد بحجة المحافظة على أموال المسلمين التي راح هو وجماعته يرتعون فيها بغير حساب، وبلغ الأمر الى أن بات جعفر يحاسب الرشيد على تصرفاته ، ولا يأبه الى اعتراضاته .

وقد كان الرشيد يعاني ضيقا شديدا من هذه التصرفات ، ولكنه كان قوي الاحتمال ، عظيم الصبر، واسع الحيلة ، ومن أمهر الناس في التظاهر بالرضا — وهو في أشد سورة غضبه — اذا اقتضى الأمر ذلك . وكان ينفس عما في صدره بهمسات يهمس بها في آذان بعض خاصته . ولكن نبأ هذه الهمسات وصل الى البرامكة ، وتيقنوا منها أن الرجل ضاق ذرعا بأعمالهم ، وأنه قد تغير في السر عليهم ، فبدل أن يعدلوا أمورهم ويسلكوا سبيل الانصاف عولوا على اتخاذ الحيطة لأنفسهم بما يحول دون تمكنه منهم، ويجعله — دائما — في قبضة ايديهم . فقام الفضل بن يحيى الذي عين سنة ١٧٨ هـ واليا على الجانب الشرقي للدولة باتخاذ « خراسان » مقرا لولايته ، وكون بها جيشا عظيما من العجم قوامه خمسمائة الف جندي دون أخذ راي الرشيد وسماه « العباسية » وجعل ولاء هذا الجيش للبرامكة وحدهم .. ولما علم الرشيد بذلك الحدث الخطير استقدم الفضل الى بغداد من غير أن يعزله، فحضر اليها ومعه فرقة من هذا الجيش عددها عشرون الف جندي مسلح من الأعاجم . وقد ثارت الهواجس في نفس الرشيد من تكوين هذا الجيش ولكنه استطاع أن يحبس هواجسه عن البرامكة وعن الناس ، وراح يترقب أخبار هذه الفرقة الأعجمية التي سماها البرامكة بفرقة « الكرمينية » والتي كان عليها أن تعود الى موطنها بعد ان ادت واجبها في حراسة موكب الفضل بن يحيى من خطر الطريق . فوجد البرامكة ينزلون هذه الفرقة في معسكر الرصافة لتكون تحت أمرتهم في قلب بغداد ، وبعد فترة قصيرة من اقامتها اخذوا عددا من جنودها وأسكنوهم رحبة من رحاب قصر الخلد ليكونوا حرسا لشخص الرشيد واسرته . وبذلك يضعون مصير الرشيد والخلافة العباسية في قبضة أيديهم . ؟

ذلك هو السبب المباشر لنكبتهم، فقد رأى الرشيد انه أصبح أمام انقلاب مسلح وشيك الوقوع يطيح به وبدولته وبقوميته ! وقد روى الجهشياري ص ٢١١ قول جعفر البرمكي لأحد أخصاء الرشيد على أثر عتاب وجهه اليه : ووالله لئن كلفنا الرشيد بما لا نحب ليكونن وبالا عليه سريعا » .

ولقد كان الخليفة الرشيد في قمة الايمان والرجولة حين قرر في نفسه تحطيم هذا الانقلاب كما كان بارع الذكاء في تدبير الخطة التي مزق بها جيش العباسية في خراسان ، واضعاف شوكة البرامكة فيها دون احداث ضجة تستفز الخصوم ، وتحدث المشاكل .. الى أن جاءت الساعة الفاصلة في أمرهم .
